أعمال عجل الله عقوباتها في الدنيا

أبو الحسن بن محمد الفقيه

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فإن للذنوب والمخالفات آثارًا وخيمة، وأضرارًا جسيمة؛ فهي سبب كل همٍّ وفساد ومصيبة وكَبَد ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ومن الذنوب والمعاصي ما يعجِّل الله عقوباتها في الدنيا إمعانا في التشنيع على فاعليها وترهيبًا من ارتكابها والوقوع فيها، وإليـــك – أخي المسلم – جملة من المخالفات التي يعجل الله عقابها في الـــدنيا وقد جمعناها تذكرة وتبصرة؛ ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

والله ولي التوفيق

الحرص على الدنيا – صرف الهموم لغير الله

الحرص على الدنيا: وهذه الخصلة يعجل الله عليها عقـــوبتين هما أصل البلايا والمحن:

الأولى: تشتيت الشمل.

الثانية: الفقر الدائم وانقطاع القناعة؛ فعن يزيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كان هَمُّـــه الآخرة، جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كان هَمُّه الدنيا، فَرَّقَ الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له**»[(١)].

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «فأما الحرص على مال فهو على نوعين:

أحدهما: شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه مع الجهـــد والمشقة.

قلت: ولو لم يكن في الحرص على المـــال إلا تضـــييع العمـــر الشريف الذي لا قيمة له وقد كان يمكن صاحبه فيـــه اكتســـاب الدرجات العلا والنعيم المقيم.. فالحريص يضيع زمانـــه الشـــريف ويخاطر بنفسه التي لا قيمة لها في الأسفار، وركوب الأخطار لجمع مال ينتفع به غيره. كما قيل:

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٩).

ومـــن ينفـــق الأيـــام في جمـــع مالـــه
مخافـــة فقـــر فالـــذي فعـــل الفقـــر

فالحرص على الدنيا معذِّب صاحبه، مشغول لا يسر، ولا يلـــذ بجمعه لشغله، فلا يفرغ من محبة الدنيا لآخرته؛ لالتفاته لمـــا يفـــنى وغفلته عما يدوم ويبقى!

لا تغبطن أخـًـا حـــرص علـــى ســـعة
وانظـــر إليـــه بعـــين الماقـــت القـــالي
إن الحـــــريص لمشـــــغول بثروتـــــه
عن الســـرور بمـــا يحـــوي مـــن المـــال

والثاني: أن يزيد على ما سبق ذكره في النـــوع الأول حـــتى يطلب المال من الوجوه المحرَّمة ويمنع الحقوق الواجبة؛ فهـــذا مـــن الشُّحِّ المذموم؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِـــهِ فَأُولَئِـــكَ هُـــمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**اتقوا الشحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلك مَنْ كان قبلكم؛ أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»[1].

والحريص على الدنيا دائم الهموم مستديم الغمـــوم، لا يقنـــع

(١) رواه أبو داود وهو في السلسلة الصحيحة (٢/٥٣٩).

برزقه، ولا يطمئن لقضاء الله وقدره؛ فذُلُّه قائمٌ لا يزول، وفاقتـــه حاضرة لا تعرف الأفول.

لا تأســـفنَّ علـــى الـــدنيا ومـــا فيهـــا
فـــالموتُ لا شـــك يفنينـــا ويفنيهـــا
ومـــن يكـــن همـــه الـــدنيا ليجمعهـــا
فســـوف يومًـــا علـــى رغـــم يخليهـــا
لا تشبع الـــنفس مـــن دنيـــا تجمعهـــا
وبلغـــة مـــن قـــوام العـــيش تكفيهـــا
النفس تطمع في الـــدنيا وقـــد علمـــت
أن الســـلامة منـــها تـــرك مـــا فيهـــا

صرف الهموم لغير الله: فعن ابن مسعود – رضي الله عنـــه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من جعل الهموم همًّـــا واحدًا على المعاد كفاه الله سائر همومه، ومن تشعَّبت به الهمـــوم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أيِّ أوديتها هَلَكَ**» [(١)] .

فالاهتمام – أي اهتمام – إذا لم يكن لله جل وعلا على مـــا يرضيه سبحانه فإنه لا محالة مهلكة لصاحبه مجلبة للشقاء والتعاسة.

قال ابن القيم: «إذا أصبح العبد وأمسى ولـــيس همـــه إلا الله وحده تحمل الله عنه – سبحانه – حوائجَه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحـــه لطاعتـــه، وإن

(١) رواه الحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦١٨٩).

أصبح وأمسى والدنيا همُّه حمَّله الله همومها وغمومهـــا وأنكادهـــا، ووكله إلى نفسه؛ فشغل قلبه عن محبَّته بمحبة الخلق، ولســـانه عـــن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشـــغالهم؛ فهـــو يَكْدح كدح الوحوش في خدمة غيره»[1].

الضَّلالُ بعد الهدى – الكبر – الخيانة

الضَّلال بعد الهدى: له عقوبات مُعَجَّلةٌ كثيرة؛ منها أن المعصية والضلالة تدعو إلى أختها، ومنها الجدل، ومنها أن الله ينسي العبـــد نفسه فينسى مصالحها في الدنيا والآخـــرة، وهـــذه العقوبـــات إذا اجتمعت في الإنسان أوردته موارد الهلاك والفتن، وأوجبـــت لـــه المصارعَ والمحن، نسأل الله أن يُجَنِّبَنَا ما ظهر من ذلك وما بطن!

فعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم: «**ما ضَلَّ قوم بعد هدى كانوا عليـــه إلا أوتـــوا الجدل**»[2].

يقول ابن القيم الجوزية – رحمه الله: «حذار حذار من أمـــرين لهما عواقب سوء؛ أحدهما ردُّ الحقِّ لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقَـــب بتقليب القلب ورد ما يردُ عليك من الحق رأسًا، ولا تقبلـــه إلا إذا برز في قالب هواك؛ قال تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الأنعام: ١١٠]»

---

(١) الفوائد (١٥٩).

(٢) رواه الترمذي وأحمد وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٣٣).

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إذا تهاونت بـــه ثَبَّطَك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك، قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ *﴾ [التوبة: ٨٣].

فمن سلم من هاتين الآفـــتين والبليـــتين العظيمـــتين فليهنـــأ بالسلامة[١].

الكبر: وهو خصلة ذميمة يبغضها الله ويبغض أهلها ويجـــزي عليها صاحبها بنقيض ما أراد !

فعن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: قـــال رســـول الله – صلى الله عليه وسلم: «**ما من آدميٍّ إلا وفي رأسه حكمـــة بيـــد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكـــبر قيـــل للملك: ضع حكمته**»[٢].

قال المناويُّ في فيض القدير: (٥/٤٦٦): "الحكمةُ ما يُجْعَـــلُ تحت حنك الدَّابَّة، يمنعها المخالفة كاللِّجام، والحنك متصل بالرأس، «بيد ملك» موكَّلٌ به؛ فإذا تواضع (العبد) للحق والخلق قيل للملك من قبل الله تعالى: ارفع حكمته. أي: قَدْرَه ومنزلته، ويقال: "عالي الحكمة". فَرَفْعُها كنايةٌ عن الإعذار؛ فإذا تَكَبَّرَ قيل للملـــك: دع حكمتَه؛ كنايةً عن إذلاله؛ فإنَّ صفةَ الذليل تنكيسُ رأسه.

(١) بدائع الفوائد (٢/١٨٠، ١٨١).
(٢) رواه الطبراني وهو في السلسلة الصحيحة (٥٣٥).

فثمرةُ التَّكبُّر في الدنيا الذِّلَّةُ بين عباد الله، وفي الآخرة طينـــة الخبال، وهي عصارة أهل النار.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: مَنْ تطاول تعظيمًـــا خفضه الله - عز وجل - ومن تواضع لله تخشُّعًا رفعه الله [١].

أخي كم بغى العبادُ على بعضهم بسبب الكبر يوم أن جعلـــوا ذاك وضيعًا! وهذا رفيعًا! وكأنما خُلق ذاك من الطين! وخلق هـــذا من المسك الأذفر!!

وما أغلاها — أخي - تلك الوصية النبوية وهي تعلـــم الخلـــق أسس الحياة السعيدة! قال النبي - صلى الله عليه وسلم: «**إن الله أ وحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد! ولا يبغـــي أحد على أحد**»[٢].

فيا أيها المتواضع، إنما أنت كأرض انحدرت أركانُها فأمسكت الماء فنفع الله بها الخلق.. ويا أيها المتكبر، إنما أنت كـــأرض عاليـــة مستوية يمرُّ عليها الماء؛ فلا هي تنتفع منه لنفسها! ولا هي بنافعـــة غيرَها! [٣].

الخيانة: فعن أبي بكرة - رضي الله عنه - عن النبي صـــلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما من ذنب أَجْـــدَرُ أن يُعَجِّـــلَ الله تعـــالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعـــة**

(١) الجزاء من جنس العمل (٢/١٢٤).
(٢) رواه مسلم.
(٣) التواضع لأزهري أحمد محمود (٩).

الرحم والخيانة والكذب..» الحديث [١] .

قال الذَّهبيُّ في ترجمة المنتصر بالله الخليفة العباسي: «ورد عنه أنه قال في مرضه الذي مات فيه: "ذهبت يا أمَّاه مني الدنيا والآخرة، عاجلتُ أبي فعُوجلتُ. وكان يُتَّهم بأنه واطأ على قتل أبيه، فما أمهل».

وقال الذَّهَبيُّ في ترجمة "ابن هبيرة"، قال ابن الجوزي: استيقظ وقت السحر، فقاء فحضر طبيبه ابن رشاءة، فسقاه شيئًا – يقال أنه سمه – فمات. وسُقي الطبيبُ بعده بنصف سنة سُمًّا فكان يقول: سَقَيْتُ فسُقيتُ. فمات [٢] .

وما من يد إلا يد الله فوقها
ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم

سوءُ الظَّنِّ بالله ترك الأمر بالمعروف

سوءُ الظن بالله: وهو من أقبح الخصال التي تُنبي عن ضعف التوحيد والجهل بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته؛ فلا يُقْدم عليه إلا ضعيف الإيمان موسوس في دينه لا يعرف ربَّه ولا يذكر نعمه وفضله وخيره، وكيف يسوء ظنٌّ بالله – جل وعلا – وهو أرحم الراحمين، وأصدق القائلين، وأحكم الحاكمين! فالظلم كل الظلم، والجور كل الجور أن ينسب إلى الله سبحانه وتعالى: السوء؛ فهو قُدُّوسٌ مُنَزَّهٌ عن العيوب والنقائص.

---

(١) سيأتي تخريجه بتمامه.

(٢) الجزاء من جنس العمل (٢/٢٥٠).

لذلك كان حسنُ الظن به واجبًا على المؤمن، ولا يسيء الظن بربه إلا مخذول آذن على نفسه بتعجيل العقوبة؛ فعن أبي هريـــرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أنـــا عند ظن عبدي بي؛ إن ظن بي خيرًا فله، وإن ظن شرًا فله**»[١] .

فاحذر – أخي الكريم – من أن تَظُنَّ بالله ظَـــنَّ الســـوء، وأن تعتقد أنه خلقك ليعذبك، أو أنه يسيء إليك ويحسن إلى غيرك، أو أنه منعك رزقه تنكيلا بك، وإنما أحسن الظن به؛ فإنـــه ســـبحانه أرحم بك من أبيك وأمك وأحن عليك من الخلق أجمعـــين وأرأف بك من رأفتك بنفسك.. فكيف يريد لك الأذى فضلاً علـــى أن يلحقه بك!

ولو تأملتَ بعين بصيرة لوجـــدت أن لله حكَمًـــا بليغـــة في أحوالك، وأنه — سبحانه – ما منعك إلا ليعطيك، وما خفضك إلا ليرفعك، وما ابتلاك إلا ليهب لك حسنات لا تستطيع أنت بلوغها بعملك؛ لتستحقَّ بها الدرجات العلا.. تأمَّل في نفسك كم خالفتَ أمرَه، وكم غمست برَّه، وكم عصيت أمره! وها أنـــت لا زلـــت تأكل طعامه، وتشرب شرابه، وتشم هواءه؛ أوليس ذلـــك دليلًـــا واضحًا على أنه أرحم بك من الخلق أجمعين: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، ثم تَذَكَّر دائمًا أن الله ما ابتلاك بما ابتلاك به إلا لشيئين:

الأول: أنك أذنبتَ ذنوبًا؛ فالبلاء الذي أنزله بك سَـــيُكَفِّرها

(١) رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٩١).

برحمة الله.

الثاني: أن الله قد أراد لك المنزلة العليا عنده؛ فابتلاك ليجزيك على البلاء بالحسنات التي تؤهلك لتلك المنزلة.

قال ابن مسعود: «إن الله يعطي الدُّنيا مَن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب» (١).

فعلى المسلم أن يُحْسنَ ظَنَّه بالله عز وجل، ويعمل على اجتناب كل ما يغضبه ويسخطه؛ ليكون ظنُّه الحسن قد وافق اجتهاده وعمله الحسن.

يقول ابن القيم الجوزية: وكيف يُحْسن الظَّنَّ بربه من هو شارد عنه حالٌّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرِّضٌ للعنته، قد هان عليه حقُّه وأمرُه فأضاعه، وهان نهيُه عليه فارتكبه، وأَصرَّ عليه، وهل هذا إلا من خدع النفوس، وغرور الأماني (٢).

قال الحسن البصريُّ: «إن المؤمنَ أحسن الظَّنَّ بربِّه فأحسن العمل، وإن الفاجرَ أساء الظَّنَّ بربِّه فأساء العمل».

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَموا على سفينة، فصار بعضُهم أعلاها**

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد وهو حديث صحيح موقوف على ابن مسعود له حكم الرفع.
(٢) الجواب الكافي لابن القيم (٧٣).

وبعضُهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ مـــن فوقنا؛ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا علـــى أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»(١) .

وعن حذيفة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»(٢) .

وعن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال: إنكم لتقرؤون هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهم الله بعذاب منه**»(٣).

فهذه الأحاديث تدلُّ على أنَّ تركَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعجِّل الله عليه العقاب في الدنيا، وهو من أســـباب عمـــوم العقوبة على الناس إذا تواطؤوا على تركه.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الترمذي وحسنه.
(٣) رواه أبو داود والنسائي.

الرياء – كفر النعمة – عقوق الوالدين

الرياء: فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من سَمَّعَ سَمَّعَ الله بـــه، ومـــن راءى راءى الله به**»[١].

والرياء في الأعمال هو إرادة غير الله – جل وعلا – بها؛ وهو أنواع وأقسام؛ فمنها ما يحبط العمل من أصله؛ كمن يعمل العمـــل لغير الله من أصله؛ كأن يؤدِّي الزَّكاة سمعةً وطلبًا للذِّكر والمدح عند الناس؛ لا يقصد بذلك وجهَ الله ألبتة.

ومن الرياء ما يُضْعِف العمل ويُنْقِصه أجرَه وكمالَـــه وتمامَـــه؛ كمَنْ يَقْصد بالعمل وجهَ الله، ثم أثناء العمل يزيِّنه ويُحْسنه لإلفات وجوه الناس، وقد يتخلَّله ذلك في العمل كله، وقد ينزغه الشيطان في ذلك قليلا ثم يذهب عنه.

والمراد في هذا الكتاب أن الرياء من المخالفات الخطـــيرة الـــتي يُعَجِّلُ الله عقابها في الدنيا ويجازي عليها أصحابها بضدِّ ما قصـــدوا بأعمالهم.

يقول ابنُ قيم الجوزية – رحمه الله: «لما كان المتزيِّنُ بما لـــيس فيه – أي المرائي الذي لا يخلص لله في أعماله – ضدَّ المخلص؛ فإنه يظهر للناس أمرًا وهو في الباطن بخلافه – عامله الله بنقيض قصده؛ فإن العاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعًا وقدرًا.

---

(١) رواه مسلم.

ولما كان المخلصُ يعجَّل له من ثواب إخلاصه الحلاوة والمهابة في قلوب الناس، عجَّل الله للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أن شانه الله بين الناس؛ لأنه شان باطنَه عند الله، وهذا موجب أسماء الـــرَّبِّ الحسنى وصفاته العليا..» [١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بعمله سَمَّعَ الله به مسامع خلقه، وصَغَّرَه وحَقَّرَه**»[٢].

كُفْرُ النِّعْمَة: قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَـــتْ آمِنَـــةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ [إبراهيم: ٧].

فَمَنْ كَفر نعمة الله و لم يُؤَدِّ حقَّها من الحمد والشـــكر فقـــد استوجب على نفسه حلولَ العذاب الشديد، وتبديل النِّعمة بالنِّقمة، والرغد والسعة بالضِّيق والهوان، والأمـــن والاســـتقرار بـــالخوف والاضطراب، وهذا مشاهد ومعلوم بالضرورة عند الناس عامة، ولا تزال وقائع الأزمان وشواهد التاريخ تروي قصص الكافرين بنعم الله الجاحدين لها، كيف صنع الله بهم وأرداهم خاسرين.

وليس شيء يعطي الله عليه الزِّيادة من غير استثناء غير الشكر، كما أنه ليس شيء يزيل الله به النِّعَم ويمحقها غـــير كفـــر الـــنِّعم

---

(١) إعلام الموقِّعين لابن القيم (٣/١٨٠).
(٢) رواه أحمد والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/١٦).

وجحدها؛ فالكفر بنعم الله من المعاصي الموجبة للعقوبات العاجلة؛ قال – تعالى – عن قوم فرعون الذين كفروا وما شكروا: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

يقول سيد قطب – رحمه الله: «انظر إلى هوانه وهوانهم على الله، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأنفه، فيطأطئ له الملأ المفتونون به، وهو أضل وأزهد من أن يحس به الوجود، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزَّوال، ولا يرثى له أحد على سوء المآل، لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها؛ ذهبوا ذهاب النمال، وهم كانوا جبَّارين في الأرض، يطؤون الناس بالنعال، ذهبوا غير مأسوف عليهم»[1].

عقوق الوالدين: ففي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**بابان معجَّلان عقوبتهما: البغي والعقوق**»[2].

فعقوقُ الوالدين والرَّغْبَةُ عن طاعتهما وزَجْرُهما وعدمُ الإحسان إليهما والنفقة عليهما وغير ذلك من صور العقوق وأشكاله يُعَجِّلُ الله على ذلك العقاب في الدنيا فيقتص من العاق بما يشاء وكيف يشاء! سئل شيخُ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن رجل عجز

(١) الظلال (٥/٣٢١٤).
(٢) سيأتي تخريجه.

عن الكسب ولا شيء له وله زوجة وأولاد، فهل يجوز لولده الموسر أن ينفق عليه وعلى زوجته وإخوانه الصِّغار؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، نعم؛ على الولـــد الموســـر أن ينفق على أبويه وزوجة أبيه وعلى إخوته الصِّغار، وإن لم يفعل ذلك كان عاقًّا لأبيه، قاطعًا لرحمه مستحقًا عقوبة الله تعـــالى في الـــدنيا والآخرة، والله أعلم[1].

الربا – المسألة – الدَّين بنية التَّلف

من الذنوب التي يُعَجِّل الله – جل وعلا – عقوباها في الـــدنيا: الربا وسؤال الناس للاستكثار، وأخذ الدَّين بنية إتلافـــه لا بنيـــة الوفاء!

وهذه المعاصي جميعها من أبواب الفقر وأسبابه؛ فهـــي كلُّهـــا تؤول بصاحبها إلى القلة والفاقة ولوازمها مـــن الـــذُّلِّ والمســـكنة والضَّيَاع؛ وذلك لأن العقوبةَ من جنس العمل؛ فكما أنَّ آكلَ الرِّبا إنما أعمل الربا في بيعه وتجارته ليستكثر من المال، فكذلك جزاه اللهُ بالقلَّة والفقر! وكما أن الذي يسأل الناس أموالهم وقد أغنـــاه الله ليستكثر من المال، فكذلك جزاه الله بأن فتح عليه بابًا من أبـــواب الفقر، وأحوجه بعدما أغناه! وكما أن من أخذ الدَّيْنَ ليتلفـــه إنمـــا أخذه احتيالاً على صاحبه، فكذلك جزاه الله من جنس فعله فأتلفه وأتلف ماله، وشواهد ذلك في الكتاب والسنة، ومنها:

(١) مجموع الفتاوى (١٠١/٣٤).

١- الرِّبا: فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قـــال: قـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما أحدٌ أَكْثَرَ من الربا إلا كـــان عاقبة أمره إلى قلة**» [١] .

ففي هذا الحديث دليلٌ واضح على أنَّ المكثرَ من الرِّبا يـــؤول أمرُه إلى القلة؛ وهي الجزاء النقيض لما كان يطمح إليه من الزيـــادة والاستكثار بالطرق التي لم يشرعها الله، وعن ابن عباس - رضـــي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا ظهـــر الزِّنا والرِّبا في قرية، فقد أَحَلُّوا بأنفسهم عذابَ الله**»[٢] .

وقال الله - جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُـــونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

يقول الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة: «في ضمن هذا الوعيد: أنَّ المرابي محاربٌ لله ولرسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد مـــن كبيرة سوى الربا، وقطع الطريق على الناس: هـــذا بقهـــره لهـــم، وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه في تفريج كربـــاتهم إلا بتحميلـــهم كربات أشد منها، فأخبر عن قطاع الطريق بـــأنهم يحـــاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله»[٣] .

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥١٨).
(٢) رواه الحاكم والطبراني في الكبير، وهو في صحيح الجامع (٦٩٢).
(٣) التفسير القيم (١٧٢).

وكيف لا يكون الربا إثمًا معجِّل العقوبة وقد لعن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم من تعامل به؛ فعن جابر – رضي الله عنه – قـــال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لعـــن اللهُ آكـــلَ الرِّبـــا، وموكلَه، وشاهديه، وكاتبه، هم فيه سواء**»[(١)] .

المسألة: وهي أيضًا من الذنوب التي يورث الله بها القلة في المال والشين، والعلامة في الوجه؛ ودليل ذلك ما رواه عبد الرحمن بـــن عوف – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ثلاث والذي نفس محمد بيده، إن كنت لحالفًا عليهن: لا ينقص مال من صدقة فتصدقوا، ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليـــه باب فقر**»[(٢)] .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى: «والمسألة في الأصل حرام؛ وإنما أبيحت للحاجة والضرورة؛ لأنها ظلمٌ في حقِّ الربوبية وظلم في حق المسؤول وظلم في حق السائل».

أما الأول: فلأنه بذل سؤاله وفقره وذله لغير الله؛ وذلك نوع عبودية؛ فوضع المسألة في غير موضعها، وأنزلها بغير أهلها، وظلـــم توحيده وإخلاصه وفقره إلى الله، واستغنى بسؤال الناس عن مسألة الرب؛ وذلك كله يهضم من حق التوحيد، ويطفئ نوره ويضـــعف قوته.

---

(١) مختصر مسلم صحيح الجامع (٥٠٩٠).
(٢) رواه الإمام أحمد.

وأما ظلمه للمسؤول : فلأنه سأله ما ليس عنده، فأوجب له بسؤاله عليه حقًّا لم يكن له عليه، وعرَّضَه لمشقَّة البـــذل، أو لـــوم المنع؛ فإن أعطاه أعطاه على كراهة، وإن منعه منعه على اســـتحياء وإغماض.

أما ظلمه لنفسه: فإنه أراق ماء وجهه، وذل لغير خالقه، وأنزل نفسه أدنى المنزلتين، ورضي لها بأبخس الحالتين، ورضـــي بإســـقاط شرف نفسه، وعزة تعفُّفه، وراحة قناعته بما قسم له استغناءه عـــن الناس بسوء الهم؛ وهذا عين ظلمه لنفسه (١) .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم: «**من سأل الناس أموالهم تكثرًا فإنما يسأل جمـــرًا، فليستقل أو ليستكثر**»(٢) .

الدين بنية التَّلف: وجزاؤه المعجَّل في الدنيا هو التَّلف؛ فمـــن أخذ أموال الناس يريد إتلافها جزاه الله بأن أتلف نفسه، وأفقـــده رشده، وجلب عليه الشرور والمضار؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفـــه الله**»(٣) . فكيف يطلب عاقل الكثرة بما سيؤول بـــه إلى الـــنَّقص والفاقة والتلف!

---

(١) مدارج السالكين (١٧٦/٢).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.

قال أبو حازم: «إن كان يُغنيك ما يكفيك فـأدنى عيشـك يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فلـيس في الـدنيا شـيء يغنيك».

يموت المرء على ما عاش عليه

سوء الخاتمة – وما أدراك ما سوء الخاتمة – عنوان الخسـار.. والضياع الكبير.. وسوء العاقبة في النار من ابتلي بها فقـد ابتلـي بعظيم.. ليس بعد بلائها بلاء.. فهي الشقاء وباب الشقاء.

وهي معجِّلة ولا بدَّ لمن أسرف في الحياة على نفسه.. وبـاع دينه بدنياه وأعرض عن ذكر الله.. متبعًا شهواته وهواه.

و لم تزل وقائع الأيام وأحداثها تؤكِّد أن سوءَ الخاتمة هي عقوبة معجَّلة لمن عصى الله ورسوله في الدنيا، كما أن حسن الخاتمة هـي بشارة معجلة للمؤمنين؛ فعلى فراش الموت تظهر حقائق الأعمـال، ويتميز الصالح من الطالح والمؤمن من المنافق والعاصي من الطـائع؛ فحينئذ تتلاشى المظاهر والصور.. وتتجلَّى النَّوايا الدفينة؛ فتظهـر على نطق اللسان وعلى شكل الوجه.. وبشارة النفس أو قلقها!

ولا يمكن للمرء وقتها أن يصبر أو يجلد أو يتحدى أو يصمد.. وإنما الثبات يومها من الله وحده.. قال تعالى: ﴿يُثَبِّـتُ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

يقول ابن القيم الجوزية – رحمه الله: «فسـبحان الله!! كـم شاهد الناس من هذا عبرًا، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين

أعظم وأعظم».

فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، وعقل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه جميع مـــا يقدر عليه لينال منه فرصته؛ فإن ذلك آخر العمل؛ فأقوى ما يقوم عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالـــة؛ فمن ترى يسلم من ذلك؟! فهناك ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِـــالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾، فكيف يوفَّق بحسن الخاتمة من قلبه بعيد من الله تعالى، غافل عنه، متعبِّد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معرضة عن طاعته مشتغلة بمعصيته – أن يوفَّق للخاتمة الحسنة؟!

وذكر – رحمه الله – جملة من وقائع سوء الخاتمة عند الاحتضار فقال: قيل لبعضهم: قل لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تنتنا. حتى قضى.

وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فقال: ما ينفعني ما تقـــول، ولم أدع معصية إلا ركبتها. ثم قضى ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك فقال: وما يغني عني، وما أعرف أني صـــليت لله صلاة. ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك فقال: هو كافر بما تقول. وقضى وأخـــبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه "لا

إله إلا الله" وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، وهذا مشتر جيد، هذا كذا. حتى قضى! [١]

وسوء الخاتمة أخطر العقوبات المعجلة على الإطـلاق؛ لأنها عقوبة تقتضي الخذلان في الدنيا والآخرة! فهي غبن في الدنيا؛ لأن المعاقب بها كشف ستره ومخبوءه، وظهر عليه علامة سوء عملـه، ولربما كان مستورًا في أحواله، وهي أيضًا غبن في الآخرة؛ لأن العبد يُبعث على ما مات عليه!

وفي حديث أبي هريرة الطويل عند ابن ماجه مرفوعًا: يقـال للرجل الصالح في قبره بعد أن يُعرج بروحه إلى السـماء ويسـأل: «**انظر إلى ما وقاك الله تعالى منه، ثم يفرج له فرجة قبـل الجنـة، فينظر في زهرها، وما فيها، فيقال: هذا مقعدك. ويقال له، علـى اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله**». أما الرجـل السوء فيقال له: «**انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يفرج له فرجة إلى النار، فينظر إليه يحطم بعضها بعضاً، فيقال: هذا مقعدُك؛ على الشَّكِّ كنت، وعليه متَّ، وعليه تبعث إن شاء الله**» [٢].

فيـا هـذا سـترحل عـن قريـب
إلى قـوم كلامهـم السـكوت

وكما أن سوء الخاتمة هي عقوبة معجَّلة لمن ضيَّع أمر الله جـل وعلا وغفل عنه وسها، فإن حسنَ الخاتمة بشارة معجَّلة لمن أطـاع

(١) الجواب الكافي: (١٣٠).
(٢) جزء من حديث طويل عند ابن ماجه وهو في صحيح الجامع (١٩٦٤).

الله – جل وعلا، واتَّبَعَ سبيلَ الحقِّ والهدى.

ومن أخبارها ما رواه المغيرة بن حكيم، قال: حدثيني يا فاطمة بنت عبد الملك. قالت: كنتُ أسمع عمرَ بن عبد العزيز يقـــول في مرضه الذي مات فيه: «اللهم أخف عليهم موتي ولو ســـاعة مـــن نهار». فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت فجلست في بيـــت آخر بيني وبينه باب، وهو في قبة له، فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الـــدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. ثم هدأ، فجعلت لا أسمع له حسًّا ولا كلامًـــا، فقلـــت للوصيف الذي يخدمه: انظر أمير المؤمنين، فلما دخل عليه صـــاح فوثبتُ فدخلت عليه فإذا هو ميت، وقد استقبل القبلة، وأغمـــض نفسه، ووضع إحدى يديه على عينيه، والأخرى على فيه رضي الله عنه»[1].

الكذب – البغي – قطيعة الرحم

الكذب: وله عقوبات معجَّلة عامة وخاصة:

الأولى: وهي أنه يهدي إلى الفجور ويسوق صاحبه إليه، فهو من أعظم أسباب الغواية والضلال؛ فعن ابن مسعود – رضـــي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم: «**إن الصـــدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجـــل ليصـــدق حتى يُكتب عند الله صديقًا وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن**

(١) الحدائق لابن الجوزي (٣/٤٤٠).

الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا»[١] .

الثانية: وهي الريبة والقلق والاضطراب وعدم الطمأنينة الـــتي هي أساس السعادة؛ فعن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالـــب رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وســـلم: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإن الصدقَ طمأنينة والكـــذب ريبة**»[٢] .

الثالثة: وهي عقوبة غير معينة من الله جل وعلا؛ فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما مـــن ذنب أجدر أن يجعل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع مـــا يدخره له في الآخرة، من قطيعة الرحم والخيانة والكـــذب، وإن أعجلَ الطاعة ثوابًا لَصلةُ الرَّحم؛ حتى أن أهل البيت ليكونـــون فجرة، فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا**»[٣] .

قال مالك بن دينار: «الصدق والكذب يعتركان في القلـــب حتى يُخرج أحدهما صاحبه».

ومن أخطر صور الكذب التي يعجِّل الله عليها العقاب ويـــدع الديار بها خاوية قاعًا صفصفًا اليمين الغموس؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لـــيس شـــيء**

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه الترمذي وصححه.
(٣) رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٩١).

أطيع الله تعالى فيه أعجل ثوابًا من صلة الرحم، ولـــيس شـــيء أعجل عقابًا من البغي وقطيعة الرحم، واليمين الفـــاجرة تـــدع الدِّيار بلاقع» [1].

فليحذر المسلم من هذه الخصلة الذميمة والتي هي مـــن صـــفة أغلب التجار الذين لا يكذبون في تجاراهم فقط؛ وإنما يتعدون ذلك إلى القسم الفاجرة الغموس، ويغلظون في ذلك طمعًا في مال سيفنى وشرف سيزول ويبلى! وقد حذَّر من ذلك رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم فقال: «**التجار هم الفجار**». قيل: يا رسول الله، أليس أحل الله البيع؟! قال: «**بلى؛ ولكنهم يحدثون فيكذبون ويقسمون فيحنثون**».

البغي: فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم: «**بابـــان معجـــلان عقوبتـــهما في الـــدنيا: البغـــي والعقوق**»[2] .

قال بعض الحكماء: أعجل الأمور عقوبة وأسرعها لصـــاحبه سرعة ظلم من لا ناصر له إلا الله، ومجـــاورة الـــنعم بالتقصـــير، واستطالة الغني على الفقير.

ورغم أن الله – جل وعلا – أوعد الظالم البـــاغي بتعجيـــل عقوبته وجزائه في الدنيا فقد جعل للمظلوم دعوةً مستجابةً لـــيس بينها وبينه حجاب؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رســـول الله

(١) رواه البيهقي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٧٨).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك وهو في السلسلة الصحيحة (١١٢٠).

صلى الله عليه وسلم: «**اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرًا؛ فإنه ليس دونها حجاب**»[١] .

وإليك – أخي الكريم – قصة شاهدة على ذلك: فقـــد روى البخاري أن أهل الكوفة شَكَوْا سعد بن أبي وقـــاص إلى عمـــر – رضي الله عنهما – فعزله واستعمل عليهم عمَّارًا، فشكوا سعدًا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إســـحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي. قال سعد: أما أنا فـــوالله إني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أخـــرم عنها، أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين وأخف في الأخريين. قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق. فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة، فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجدًا إلا ســـأل عنـــه ويثنون معروفًا، حتى دخل مسجدًا لبني عبس، فقام رجـــل منـــهم يقال له "أسامة بن قتادة" يُكَنَّى أبا سعدة قال: أما إذا نشدتنا فـــإن سعدًا كان لا يسير بالسرية، ولا يقســـم بالســـوية ولا يعـــدل في القضية. قال سعد: وأنا والله لأدعونَّ بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن، وكان الرجل إذا سئل بعد يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعـــوة سعد!! قال عبد الملك: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيـــه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطريق يغمزهن[٢] .

---

(١) رواه أحمد وغيره وهو في صحيح الجامع (١١٨).

(٢) رواه البخاري.

قطيعة الرحم: وقد سبق في الحديث: «**ما من ذنب أجدر أن يُعَجِّلَ الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يَدَّخرُه في الآخرة من قطيعة الرحم والخيانة والكذب**». فقطيعة الـــرحم عقوبتـــها معجَّلة، ولا بد؛ سواء كان الذي ارتكبها صالحًا أم فاسقًا؛ فمغبَّتُها محتضرة معجَّلة لا تزول إلا بالتوبة إلى الله سبحانه، وتوطين النفس على صلة الرحم كما أمر الله سبحانه؛ بل صَحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «**من قطع رحمه لقي وباله قبل أن يمـــوت**». وفي ذلك نصٌّ صريح على أن قاطعَ الرحم يلقى جزاءه في الدنيا ولا بد!

ومن بين العقوبات النفسية التي يعاقب الله بها القاطع للرحم أن ينصر عليه من وصله، وأن يظهره عليه ثوابًا للواصل وعذابًا علـــى القاطع؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيؤون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ. فقال: «**لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**»[1]

كشف عورة المسلم وخذلانه

كشف عورة المسلم: أما كشف عورة المسلم فـــإن جـــزاءه معجل ولا بد وهو هتك عورة من فعله وفضحها جـــزاء وفاقًـــا، ويكون كشف عورة المسلم وفضحه بطرق هي:

---

(١) رواه مسلم.

الأولى: وهي كشف عيوبه للناس وإظهاره للتَّشهير به، وتنفير الناس منه، وتنقيصه وتجريحه من غير موجب شرعي لذلك، وهـــذا ديدن كثير من الناس إلا من رحم الله، وقد ورد وعيد شـــديد في حق من فعل ذلك؛ قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

الثانية: تتبع عورة المسلم، والاطلاع على عيوبه، سواء عـــن طريق التجسُّس عليه، أو متابعة أحواله بسؤال النـــاس واســـتغفال عماله أو أطفاله أو جيرانه أو أهله وأصحابه أو نحـــو ذلـــك مـــن الأساليب الذميمة التي تفضي إلى كشف المخبوء من عورات الناس.

والمتتبع لعورات المسلمين وإن يكن ساترًا لما يعلمه من تلـــك العورات فهو عن فضح سريرته وهتك عورته غير بعيد؛ لأن جزاء تتبُّع العورات عند الله هو هتك عورة من فعل ذلك وفضـــحه؛ لا مجرد جزائه بتتبع عورته؛ وهذا ما يجعل الأمر في غاية الخطورة لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد! يقول رسول الله صلى الله عليـــه وسلم: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبَّع عورةَ أخيه المســـلم يتتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولـــو في جـــوف رحله**»(١).

لا تكشفن مساوي النـــاس مـــا ســـتروا
فيهتـــك الله ســـترًا عـــن مســـاويكا

(١) رواه الترمذي.

واذكر محاسن مـــا فـــيهم إذا ذكـــروا
ولا تعـــب أحـــدًا منـــهم بمـــا فيكـــا

سمع أعرابيٌّ رجلاً يقع في الناس، فقال: قد اســـتدللت علـــى عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس؛ لأن الطالب لما يطلب بقدر ما فيه منها.

وأجـــرأ مـــن رأيـــت بظهـــر عـــيني
على عيب الرجال أخو العيوب

الثالثة: تعيير المسلم بذنبه؛ فعن ابن عمر – رضي الله عنـــه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا معشر مـــن أســـلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيِّروهم ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن من تتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**»[1].

يقول ابن القيم الجوزية: إن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثما من ذنبه، وأشد من معصيته؛ لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية الـــنفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وإن أخاك بـــاء بـــه، ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذل والخضـــوع والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب – أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداء بها، والمنة على الله وخلقه بها، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج بـــه داء

(١) رواه الترمذي و هو في صحيح الجامع (٧٨٦٢).

قاتلاً هو فيك ولا تشعر(١) .

هذا مَنْ عَيَّرَ المسلمَ بذنب قد فعله، فكيف بمن عـــير المســـلم بشيء ليس له فيه يد؛ كأن يكون سمينًا أو طويلاً أو جاهلاً أو قليل الفهم أو نحو ذلك.

الرابعة: الافتراء على المسلم وقذفه في عرضه، وهذا من أعظم الكبائر التي يعجل الله جل وعـــلا عقاهـــا في الـــدنيا، وقـــد ورد التنصيص على ذلك في القرآن الكريم صريحًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْـآخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣].

واللعن هو الطرد من رحمة الله – جل وعلا – في الدنيا؛ فيحرم المسلم بذلك من موارد الخير ومفاتيح الفضل، وفي الآخرة أيضًـــا؛ حيث لا عاصم من أمر الله إلا من رحم!

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِـــي الَّـــذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ فإذا كان مجـــرَّد حـــبِّ إشاعة الفاحشة في المؤمنين والرضا به موجب للعـــذاب الألـــيم في الدنيا، فكيف بإشاعة الفاحشة نفسها! فلا شك أن عذاب صاحبها أنكى، وعاقبته في الدنيا أخزى وأردى؛ نسأل الله المعافاة في الـــدنيا والآخرة.

قال أبو عاصم النبيل: لا يذكر الناس بما يكرهون إلا سفلة لا

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/١٧٦).

دين لهم. وقال مالك رحمه الله: كفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا ويقع في الصالحين [١].

خذلان المسلم: ففي الحديث الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من امـــرئ يخـــذل امرءًا مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه مـــن حرمته، إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، ومـــا مـــن أحد ينصر مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك مـــن حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته**»[٢].

وهنا أمور يجب التنبيه عليها: الأولى: أن الحديث يشمل المسلم - أي مسلم - ولا يستلزم نصره أن يكون معروفًا لدى من نصره؛ وإنما يجب نصره ويحرم خذلانه بمجرد أن يكون مسلمًا ويصـــدق عليه اسم الإسلام، وسواء كان ذاك المسلم المنتقص مـــن عرضـــه حاضرًا أم غائبًا.

الثانية: أن نصر المسلم وعدم خذلانه يكون بأمور هي:

عدم السماح بغيبته وذكره بما يكره.

عدم السماح بالسخرية منه وهمزه ولمزه وتعييره والتجسُّس عليه وكشف عورته وتتبُّعها!

عدم السماح بأخذ ماله وممتلكاته وهضم حقه.

---

(١) صفة الصفوة (١٩٠/٣).

(٢) رواه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٩٠).

عدم السماح بانتهاك عرضه وحرمته.

عدم السماح بإيذائه بأي شكل من الإيذاء سواء في حضوره أو غيبته.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى هاهنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[1].

الثالث: أن الله جل وعلا جعل الجزاء في هذه الخصال من جنس العمل وجعلها معجلة في الدنيا؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة**»[2].

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البيهقي وحسنه الألباني في الصحيحة (١٢١٧).